الامتاع العميق في الغالب، حتى لكأنه شاعر قبل أي شيء آخر. أراد أن يشعر، فكتب قصصاً، طالت أم قصرت أم جاء بما يشبه المسرح.

أيضاً، هو يصر، عن قصد وعمد، على اعادة بعض ما غاب من لغتنا الجميلة، على صورة كلمات، تبدو صعبة للوهلة الأولى، يوشح بها لغته، بمهارة حقيقية. فاذا، حتى المختصين، يعودون إلى معاجمهم، ليتأكدوا من مداليلها، وهو بذلك، انما يعيد إلينا، بعض المفردات الضائعة، لتدخل من جديد، إلى نسجة الحياة الواسعة، إلى اللغة المستعملة من جديد، وهو أمر نقرّه ونغبطه عليه، شرط عدم المبالغة. وهو من هذا الجانب، كاتب متميز باسلوبه.

الشخصيات لديه أيضاً، تحس وكأنه يجهد طويلاً في صنعها، مع التركيز الشديد على ألا يبدو أثر الجهد والنّصب فيها. وما زلنا نذكر قصته الرائعة: «ام الروبابيكا»، تلك التي لا هم لها، سوى الاحتفاظ ببقايا ماض اصبح بعيداً، تخبئها في سواد العين والقلب، أو «الدواشك» المجهدة، حتى اذا رجع العائدون، وجدوا ما يذكرهم بذياك الماضي، الذي أمسى بعيداً. انها قصة مفعمة بالعمق والحنو والشعر وما لست تستطيع تحديداً لأسرار روعته!

اما في المتشائل، فهو يخاطب عقلك، بما يشبه سحر الساحر، دون ان يصل بك إلى لغة الوعظ والمباشرة. ويبدو انه، ما يزال، حتى الآن على الاقل، أبرز أعماله، والذي أراد أن يبلغ فيه شواطىء الاعجاز، فما خيبته سفنه...

إن كلمات المتشائل، صوره وألوانه، تستطيع أن تدخل، حتى ما وراء القضبان التي تضيق على السجناء، في سجون الوطن المحتل، لتلامس قلوبهم وعقولهم، وتحول من رطوبة الزنازين، إلى ليل واعد مفعم بانفاس الربيع...

ثمة جانب مهم جداً، في كل ما كتب حبيبي، وهو جانب السخر اللاذع والذكي. إنه الطُّرف مجسداً، والمرارات في قلب الكاتب تتحول إلى لسات، شبه ماجنة أحياناً، تحملك، تحمل اولئك الراسفين في المنفى إلى الابتسام... وإلى التفكر العميق أيضاً. وهذا هو السخر، كما عرفناه عند اعلامه القدامى، كالجاحظ خاصة.

في «لكع بن لكع»، ويبدو انه أخذ الاسم من حديث شريف استهل به الكتاب «لا تقوم الساعة، حتى يلي أمور الناس، لكع بن لكع». وهو حديث لا ندري مدى مصداقية نسبته. فالاحاديث، كما نعلم جميعاً، حرف الكثير منها، أو اضيف، لغايات سياسية في الغالب، ولانها ليست قرآناً. فقد أمكن التحريف والتأليف فيها، وهي لهذا تحتاج إلى درس وتمحيص، من جهابذة مختصين، لسنا منهم على اية حال.

ولكع وألكع ولكعا، تحمل اكثر من معنى، لغة. تعني العيّ والاكول والزري الوسخ... فهل هذا ما قصده، أم ثمة معان أخر وراء التسمية؟ هو ولا ريب، لا يعني حرفية اللغة. فلماذا يذكر بمجيء الساعة؟! أهي حالة يأس، أم ترف، أم سخرية مرة. أم أنها شيء من كل هذا!...

صندوق الفرجة، أو «عجايب غرايب» كما نسميه في قرى الشمال من بلاد الشام. هو مسرح الحكاية - المسرحية. وهو صندوق عجيب غريب فعلاً، لدى اميل حبيبي، لا علاقة له بذاك الصندوق، الذي طالما شاهدناه أطفالاً، فاذهلنا وابهجنا، باخبار الزير ليل والزناتي خليفة وذياب و...

ان اللقطة، غاية في الروعة، وعلى كل الاصعدة، مسرحاً أو قصة أو حتى في مجال السينما. ولكن المؤلف بالغ في استعماله أحياناً، فنجح مرات، وطاشت رميته في مرات أخر.

حين بدأت «بصاحبنا لكع» لا أنكر انني بدأت بالتهليل له. وأوشكت أشتم - على كرهي للشتيمة - كل من كتبوا عنه. ولكنني، حين ارغلت في مناحيه، بدأت التقط انفاسي، واحصي مطارح الروعة ومواضع الارتباك أيضاً.

فيها مسرحية كانت أم رواية أم أي شيء آخر، لا يهم، ولكننا لا نستطيع أن نغفل أمراً مهماً، وهو